جائزة عقاربلحسن للإبداع القصصي 2022

محمد الصدّيق منّيغ

عشرات 3

مجموعة قصصيّة

محمد الصدّيق منّيخ

عبثيّات

مجموعة قصصيّة

نسخة خاصّة بالنّشر الإلكتروني

الطّبعة الورقيّة الأولى عن دار خيال للنّشر والتّرجمة: 2022 ©

النّسخة الإلكترونيّة الأولى: 2026 ©

تصميم الغلاف: المؤلّف.

للتّواصل مع المؤلف: Seddikmenikh@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

لا يحقّ لأيّ جهة أو فرد إعادة نشر هذا الكتاب، أو اقتباس جزء منه، أو ترجمته، أو تصويره، أو تخزينه رقميّا بأيّ وسيلة كانت، دون الحصول على إذن خطّي مسبق من المؤلّف شخصيّا.

إهداء

إلى الميناء الأول والأخير

الفهرس

الوصيّتان..... 6
ما أجمل العدالة 24
السّنديان يمنع من الموت..... 29
الشّيخ يعقوب..... 33
أفكارٌ مُرهقَة 54
أحبّك يا يونس..... 61
قهوة؛ حليب؛ وأشياء أخرى 67

الوصيّتان*

لعلّ كلّ تلك الدّموع التي كانت تَتزلّج على وَجنتيه؛ لم تكن غزيرَة بسبب حزنه على وفاة أبيه، بل بسبب هذه الجنازة التي لا تشبه أيّ جنازة أخرى. وكأنّ السّماء المُوحشة ولفَحات الزّمهرير لم تكن كافية، لم يكن هناك أيّ شخص في المقبرة لِتشييع جثمان الرّاحل كاظم؛ سِوى ابنه البِكر آصف، وحفّار القبور وصاحب عربة الجنازة، الذي كان مُسنّدا على عربته شبه نائم، ينتظر أن تُدفع أجرته. ولعلّك تستغرب كيف هذا؟

كاظم هذا كان مُتزوّجا؛ غير أنّ زوجته قد قرّرت دخول الثّرى قبله بثلاث عشرة سنة، إثر سُقوطها من فوق شجرة زيتون، بينما كانت تُعلّق حبل الغسيل الممتدّ من شرفة المنزل. غير أنّها كانت اِمرأةً وَلودا، فقبل رحيلها أغدَقت على كاظم بأربعة

*نشرت هذه القصّة ضمن الطّبعة الورقيّة الأولى تحت عنوان "حفّار القبور".

خلائف. فتاة واحدة وثلاثة أولاد، أوّلهم كان هذا الذي يبكي ويَنوح "آصف"، ولعلّه كان الأقرب إلى والده لأنّه الأكبر سنّا، فكان الأكثر عِشْرة له وذاق معه كلّ حُلو ومُرّ. أمّا الثّانية في التّرتيب فكانت خولة، فتاةٌ خمريّة اللّون مُجعّدة الشّعر؛ نادرة الأفكار غريبة الأطوار، ولهذا كانت منبوذةً وسط عائلتها، وبين أقرانها وأقاربها وجيرانها. لكن حتّى أصغر دودة في الأرض لا بدّ أن تجذب اِنتباه عصفور ما، ولِكلٍّ هالة من الجمال والقبول لا يراها إلّا من قُدّر له ذلك، فما لَبثتْ أن التقت بمهندس شابّ، أُعجِبا ببعضهما البعض، وتعانقا أكثر من مرّة ثمّ قرّرا الزّواج. ولم يُثنِها كونها ستعيش بعيدةً عن عائلتها؛ بل إنّها وجدت ذلك خَلاصا من تنافرها معهم. ولعلّ هذا يُفسّر عدم قدومها لِجنازة والدها، ربّما لم تسمع بوفاته قط أو ربّما نسيتْ أنّ لها أبًا سيموت يوما ما.

الإبن الثّالث كان "تَيْم" ولعلّ اسمه لم يكن القِصَرَ الوحيد فيه، لقد كان عارَ السّلالة كما يقول والده، كان كُرْدوما؛ مُفلطَح الرّأس؛ أجوَف المحاجِر أَمردًا، إذا ما تصبّب عرَقًا خِلتَه قِطعة زُبدة تذوب. وفوق هذا كان يُعاني من ضَعف السّمع والنّظر، وضعفٍ في كلّ عُضو من الأعضاء تقريبا، لقد كان أشبه بمُهر حديث الولادة. ولو أنّك عرفته شخصيّا وعاشرته لما استغربت غيابه عن جنازة والده، فربّما لا يعلم أصلا أنّ له أبًا؛ أو ربّما لا يعرف حتّى كيف أتى للوجود.

الإبن الرّابع أمجد كان شابّا متعلّما، له باع في الفلسفة، ولعلّ هذا كان سبب البُون بينه وبين النّاس، إنّه ذلك النّوع من الأشخاص الذين يُبالغون في التّفكير، وهذا ليس إطراء، بل هو انتقاد لاذع. تصوّر أن تضع أمامه فنجان قهوة، فيحدّثك عن تاريخها وأصلِ البُنّ وأنواعه وألوانه ورائحته؛ والتّنافس القائم بين القهوة والشّاي...لقد كان هكذا، شخصًا مهوُوسا بالتّدقيق. وطبعًا

المُجتمع لا يحبّ التّدقيق إلّا في الفواتير والحسابات. ولعلّه إن كان تلقّى خبرا بوفاة والده لأَتى مُهرولا كالنّعامة، غير أنّ آصف لم يُخبره حسب وصيّة والده. فهذا الأخير كان يجلس ذات أمسية على شرفة منزله يدخّن سيجارة، يُراقب الأفق ويُفكّر في مماته، وقد توقّع ردّة فِعل أمجد يوم الجنازة؛ تخيّله وهو يتمَطّى جِيئة وذهابا يُحدّث النّاس عن إشكاليّة الموت والرّوح والبعث؛ وعن رسالة الغفران؛ وتحلّل الجسد في التّراب، وربّما قد يتمادى فيتسلّل ليلا إلى المقبرة لينبش قبره. لهذا أصرّ في وصيّته التي كان يحملها معه دائما في حِزام بِنطاله، على ألّا يتمّ إخطار أمجد إذا ما مات.

أمّا السّيّد كاظم هذا فكان تاجرَ أقمشة، ولعلّ هذا هو سبب نُفور النّاس منه حتّى يومَ وفاتِه. فكلّ من داس دُكّان كاظم؛ إمّا أن يخرج صارخا أو يعود بعد وقت شاتِما، لقد كان كاظم دائم الاعتكاف في صومعة الغشّ، يبيع قماش الصّوف على أنّه

كشمير؛ وقماش السّاتان على أنّه حرير وهكذا. ولهذا ما إن شاع خبر وفاته حتّى عمّ السّرور وبانت النّضارة على الوجوه.

تنبّه آصف من سهوته أخيرا، والتفت إلى حفّار القبور المُتّكئ على مِجرفته وقال:

- لعلّك يا صديقي تفكّر في خلَدك، وتقول إنّ هذه أغرب جنازة مرّت عليك، وإنّك لم تحفِر قبرا لشخص منبوذٍ كهذا من قبل.

حرّك حفّار القبور وكان اسمه خيري رأسه نافيًا؛

- إنّ كلّ ما أنتظره هو أن تُشير عليّ بِرَدْم القبر، لأنّ لديّ قبرا آخر عليّ حفره في بلدة أخرى تبعد عن هنا ثلاثة أميال. أمّا والدك فلم أرَ من هو منبوذ مثله؛ صحيح، غير أنّني رأيت أغرب من جنازته وأعجب.

فتح آصف عينيه وجفّف دموعه وقال بنبرةٍ مسرحيّة:

- أخالُك مازِحا، أسبق أن رأيت جنازة أغرب من هذه، شخص لا يشيّعه أحد سوى ابنه؟

تنهّد خيري وهو يُفتّت بمجرفته التّراب المُتكوِّم؛

- وما العجيب في هذا؟ إنّما العجب في جنازة حاتم الصّائِغ.

- حاتم الصّائغ؟ من هو؟

اِنتصبت المِجرفة واتّكأ خيري بمرفقه عليها، ثمّ أخذ نفسا عميقا كأنّه سيُكمل ما نسته شهرزاد من قصص، وقال بزفير مُنهك:

حاتم هذا قد تولّيتُ دفنه قبل أربعة أعوام في إحدى مدن الغرب، ولم أشهد جنازة عامِرة كجنازته، حتّى أنّك لو رأيت ذلك اليوم، لحسبته يوم الحشر أو الحساب. الصّغير والكبير؛ والمرأة والرّجل، الجميع كان يبكي وينوح وينذُب حياته بعد فراق حاتم. كان حشدا عظيما لدرجة أنّ المشيّعين لِطول وقفتهم وتَصلّبِ أرجلهم، قد اتخذوا من بقيّة القبور مقاعد، واليافعون ممّن

يقدرون تسلّقوا الأشجار والأسوار، وتشبّثوا بها تحسَبهم هِررة أو قِردة.

وقد تلاعب بي الفُضول فما كنتُ أهوي بمجرفتي إلّا وأنا أتساءل، من هذا الذي كسَب القلوب حتّى صارت خواتِم يقلّبها بين أصابعه حتّى وهو ميّت؛ وماذا فعلَ هذا الرّجل حتّى جعل قبره ندِيّا من شدّة بكاء النّاس على فراقه؟ وإنّي في كلّ مرّة كنت أخالُه بصفة؛ فتارةً كنتُ أقول لا بدّ أنّه طبيب، نعم؛ طبيبٌ ماهر مخلص في عمله شُفي النّاس على يديه، أو ربّما مُساعدا للفقراء آخذا بيَد المحتاج لا يأخذ درهما منه. وتارةً أقولُ لا بُدّ أن يكون مُعلّما، تربّت الأجيال على يديه وتعلّمت، فما نسَوا فضله وجاؤوا يبكونه اليوم. ثمّ أقول في نفسي لا وألف لا، فما نحن في ذلك الزّمن الذي لا ينسى فيه النّاس أفضال الموتى، وما نحن في ذلك العصر الذي يُقدِّس المعلّم والطّبيب. فلا بدّ أنّه كان مُغنّيا، نعم؛ مغنّيا عذب الصّوت رخيمَ الألحان؛ غنّى في الحفلات

والزّيجات وأطرَبَ الآذان، فجاء أصحابه ومُعْجَبوه يتحسّرون على فراقه. أو ربّما هو راقص، كان يتفنّن في إمتاع الجماهير، بما يقوم به من شطحاتٍ وقفزات وهزٍّ للجسم. وهكذا مضى عملي ذلك اليوم في التّأويل والافتراض.

غير أنّي وبعد أن أنهيت عملي وقبضتُ أُجرتي ثارت ثائرةُ فضولي، وأردتُ أن أَنبِشَ لأعرف. فَمِلْتُ إلى رجلٍ جامد كجبال الجليد؛ باهت اللّون؛ يابس المُحيّا كأعواد القصَب الجافّة، قد كان واقفا مُتسمّرا على مقربة من القبر، وما سكت دقيقة؛ بل ثانية عن النّواح، وقد أبدى من البلاغة والبيان والحُرقة والأحزان؛ في رثاء هذا الميّت ما تذوب له الأبدان. فقلتُ في نفسي لا يكون هذا الرّجل إلّا أبًا أو اِبنًا للمُتوفّى. فلا بدّ أن أقترب منه وأُعزّيه في فقيده، ثمّ أسأله عن حالِ عزيزه قبل الوفاة، لأنّي ما رأيتُ أحبّ للنّاس منه. فَدنوتُ منه ومددتُ يدي أُصافِحه، فما لبث من شدّة لوعته أن ألقى بنفسه يحضنني، فعانقته وواسيته ثمّ سألته

مُتلطّفا: كلّنا محزونون على فراقه، لقد كان غاليا على قلوبنا، وإنّي لأراك أشدّنا على هذا، فهلّا تكرّمتَ وأجبتَ سائلا يطرق باب عقلي، ما هي علاقتك بهذا الكريم المتوفّى يا سيّدي؟

فما قلتُ هذا إلّا وبدأ الرّجل يُنحنِحُ ويُغَربِلُ نظراته ليقول لي: "إنّما الحقيقة أنّي غريبٌ عن هذه المدينة، وقد صادفتُ أثناءَ تِجوالي جنازة هذا الرّجل الطيّب، ومن الصُّدفة أيضا أنّ اِسمه يُوافق اِسم أبي المُتوفّى قبل مُدّة، فتناطَحَت مشاعري وتذكّرتُ والدي، فما وجدتُ نفسي إلّا سائِرا خلف الجنازة، أذرفُ دُموع الحزن والفراق على قبره".

لا أخفي عنك أنّني سحبت يدي من يده، ورجعت خطوة للوراء عجبا، فإذا كان هذا الرّجل الغريب يبكي ويتخبّط هكذا، فكيف يكون إذن حال أهل المتوفّى.

فجُلتُ بنظري لِأُبصِر آنسة يانعة كحبّة الكرز، قد أسدَلت عليها ثوبَ الحِداد الأسود، واِنزوت بعيدا عن النّاس لا تكلّم أحدا. فقلتُ في نفسي إنّها تُخفي الحريق داخل صدرها، لكنّ الدّخان يَخرجُ من كلّ عُضوٍ فيها، فلا بدّ أن تكون اِبنة المُتوفّى لِما يبدو عليها من فُتورٍ وذُبول. فعزفتُ لها متودّدا قائلا:

- أيا اِبنتي لا تحزني، إنّما هذه أقدار البشر وطريقُ الخلائق، فما من شيءٍ سيبقى والكلّ فانٍ، وإنّي

لأرجو أن يسكن والدك الجِنان وتحرم عليه النّيران...فما انتهيت من كلامي حتّى استوقفتني: "ماذا تقول يا عمّ...والدي حيّ يرزق وإنّي لأرجو أن يُعمّر ألف سنة".

فشعرتُ بخجل من قولي وجهلي ثمّ سألتها: فمَن هذا الذي تَحزنين اليوم على موته؟ فأجابت:

- وما همّني؛ أليسَ إنسانا؟ حتّى لو لم أعرفه فإنّ مبادئي وقيَمي تُشير عليّ بتوديعه والحزن من أجله.

فما عجِبتُ لأمرها وقلتُ لا بُدّ أنّها شابّة مُتفتّحةُ الفِكر، رقيقةُ المشاعر تحزُن حتّى على وفاة فأرٍ صغير. فجُلتُ ببصري في الأرجاء لِأَلمحَ شيخا قد أخذَ نصيبهُ من الحياة، وما هي إلّا أيّام قبلَ أن أحفِرَ قبرَه، غيرَ أنّه يتكبّدُ كلّ العَناء، ويَتلوّى من المشقّة مُستندا على عُكّازه. ففكّرتُ وقلت إنّ هذا الذي يبذلُ كلّ هذا الجهد العظيم، لا بدّ أن يكون أخا أو صديقا عزيزا للمتوفّى. فهَممْتُ إليه مُقبّلا جبينه سائلا إيّاه عن منزِلته من الميّت، فتفاجأتُ به يقول إنّها حفيدته، فأعدتُ التّفكير وقلتُ إنّ المسكين قد خَرِف، أبْلى الزّمن عقله فلم يعد يُفرّق بين الذّكر والأنثى؛ ولا بين الحيّ والميّت.

فارتأيتُ بعد كلّ هذا وقد استَعرَتْ نيران حيرتي، أن أسأَلَ القائم على المقبرة فهُو أعلمُ بأهلِ القُبور. فلبثتُ ساعاتٍ أرقُبُ رحيلَ

الجميع، ثمّ رُغتُ إليه أسأله عن المتوفّى، وعن مكانته بين النّاس وعن حاله التي جعلته يسرِق القلوب ويتملّك الألباب. وهنا يأتي كلّ العجب في هاته الواقعة، إذ قال لي القائمُ على المقبرة؛ إنّ هذا المتوفّى يُدعى حاتم وهو واحدٌ من صائغي تلك المدينة، وإنّه على العكس ممّا اِعتقدته؛ رجلٌ جشِع بخيل، لا يَخرُج من جيبه دِرهم ولا يتلفّظُ إلّا كلاما بذيئا، يكره كلّ الخلائق ومنزِلته في النّاس كمنزِلة الزّيت في الماء؛ لا يتجانسان أبدا. بل حتّى أهله غارقون في رذيل أخلاقه وخشونة معاملته. فزادت حيرتي وقلتُ أنّى لهذا أن يكون، فمالِ هؤلاء إذن يبكون ويندبون تعْسَ حظّهم لفراقه؟

فقال لي مُقيم المقبرة إنّ هذا الإهتمام والمحبّة التي صُبّتْ عليه، هيَ بسبب وصيّته التي تركها، وإنّ هؤلاء الذين تراهم يطوفون حول قبره إنّما جُلّهم لا يعرِفه، بل جاؤوا عند سماعِهم الوصيّة،

فهذا الصّائغ حاتم قد ترك وصيّة كان يُخبّئها في حذائه وجاء نصّها كالتّالي:

"إنّني أكتب هذه الوصيّة ليس تكهّنا بموتي ولا تطيّرا، بل العكس؛ فأنا أدعو الله أن يُطيل عمري ويرزقني الصّحة والعافية، وأكون آخر من يموت على المعمورة. غير أنّي أخشى أن تغدر بي الأقدار، فتُسَلّط عليّ مرضا خبيثا ينهشُ جسمي ويجرّني إلى القبر. أو أن يتربّص بي حادث فتزلّ قدمي أو يسقطُ على رأسي ثِقلٌ فيجثّه وأخِرَّ ميّتا. أو يتعرّضَ لي لِصّ يبتغي مالي فلا أعطيه فِلْساً فيقتلني، ولهذا أنا السيّد "حاتم تولي" أكتبُ هذه الوصيّة لكَ يا سيّد "صبري" وأوصيك أن تقرأها في السّاحة العامّة بعد أن يجتمع النّاس حولك. وأوّل شيء فليعلم النّاس والأهل والأقارب، أنّني ما تصرّفتُ معهم بقساوةٍ وما فررتُ منهم وما بخلتُ بمالي وأعرضتُ عنهم إلّا لزُهدي. نعم؛ فأنا لم أكنِز الذّهب والفضّة إلّا لِزُهدي، وعِلمي أنّني سأموتُ

يوما تاركا كلّ شيءٍ خلفي. فكان واجبا عليّ أن أختار بحكمة وعناية ذلك الذي سيستمتع بها من بعدي. فلا بدّ أن يكون شخصا عرف قيمتي، وأحبّني بما فيّ من عيوبٍ ومساوئ، وبما أظهرتُ له من قبحٍ وجفاء. فإنّ وصيّتي يا سيّد صبري، أن تنتقلَ كلّ تركتي إلى أكثر شخصٍ يحزنُ على فراقي وموتي، ذلك أنّ الحبّ الحقيقي لا يظهر إلّا بعد فِراق المحبوب".

هذا كان نصّ الوصيّة التي تركها حاتم، فما لبِثَ أن وقف السّيّد صبري وهوَ مُستشارُه القانونيّ، وسط السّاحة قارئا هاته الوصيّة، إلّا وانطلق النّاس يتصارعون كأنّها المجاعة. فهذا يُحاوِل أن يحمِل نعشَ حاتم، وذلك يتلوّى في الأرض ينوح ويبكي، وآخر ينظم أبيات رثاء، وتلك امرأة تُقبّل نعشه وأخرى تُرتّل آياتٍ على قبره وهكذا. كلّ واحد منهم يُريد أن يقول إنّه الأكثر لوعةً وتمزّقا لفراق حاتم، من أجل أن يلفِت انتباه المستشار فيمنحه التّركة.

تعجّب آصف من هذا الخبر وتمْتَم بصوتٍ ضعيف:

- ألا إنّك محقّ، فما أمر أبي من أمر هذا الرّجل إلّا أمر هيّن، إنّ هذا أغرب ما سمعت وإنّه ليشبه تلك الحكايا الشّعبيّة القديمة.

أردَف خيري قائلا: ألا إنّ العجب لم ينته وإليك ما حدث بعد هذا؛ بعدما حملتُ مجرفتي وفأسي، وجرَرتُ أعطافي المنهكة حائرا في أمر هؤلاء النّاس، الذين فعلوا كلّ هذا لرجل لا يعرفونه مقابل الظّفر بتركته. ألا إنّني لا أستطيع مجاملة زوجتي على طبخها السّيء، فما بالك أن أفعل ما فعلت هذه الحَرابي. وإذا بي أسمع نداءً من خلفي فألتفت لأرى رجلا مُهنْدَما، ببذلةٍ داكنة ونظّارة قراءة مستديرة، وشعرٍ خفيف وشاربٍ منفوش، ينادي عليّ يا حفّار القبور، حسبته بداية الأمر قد جاء لي بفرصة عمل، لكن بعد أن عرّفني نفسه ولفظ اسمه، علمت أنّني أقف أمام ذلك المستشار الذي استودعه السّيّد حاتم

تركته. فتجمّدتْ أطرافي وتضاربتْ أحشائي لمقاله، إذ قال لي بنبرة الحازم الجادّ:

- اعذرني على إشغالك وإزعاجك، غير أنّي جئتك بأمر عظيم يا سيّدي.

واستخرج من جيب سُترته ورقةً مطويّة فتحها وبدأ يقرأ، فإذا بها تلك الوصيّة التي تحدّث عنها مُقيم المقبرة، فسألته وما دخلي أنا في كلّ هذا، فقال:

- لقد تَفرّستُ الوجوه وقرأتُ ما بين السّطور، فأدركتُ أنّ هؤلاء الذين يبكون ويُعزّون ليسوا من الصّدق في شيء، إنّما همّهم أن يأخذوا تركة السّيّد حاتم. فقلّبتُ الأمور في عقلي وخلصتُ إلى أنّه لا يوجد بينهم من توفّرت فيه الشّروط إلّاك أنت، فقد رأيتك تكدّ في عملك منفطِرَ القلب على هذا المتوفّى؛ تريد أن تستقصي

أخباره رغم أنّك لا تعرفه البتّة. فقلتُ في نفسي إنّك أنت الأحقّ بهاته التّركة، وإنّني لن أفارقك قبل أن أعطيك إيّاها.

لا أنكرُ أنّني قد رميتُ المِجرفة والفأس جانبا، وبدأتُ أتخيّلُ تلك الأموال والعقارات والسّبائك؛ فهذه تركة صائغ كما تعلم. وحمدتُ الله الذي أغاثني من حالة الغُبن التي أنا فيها، وأبعدني عن رائحة التّراب وانحناء الظّهر.

رفع آصف حاجبيه وأفرج عينيه وقال: مالي أراك إذن في هيئتك هذه؛ ما زلتَ هائما بين القبور؟

فإذا بخيري ينفِضُ يديه ويخرج من جيب بنطاله ساعةً ملساء، خاليةً من الخطوط والعلامات، وانفجر ضاحكا:

- ألا إنّ السّيّد حاتم لم يكن سوى رجلٍ بخيل حتّى بعد موته، فتلك التّركة التي استودعها مستشاره القانونيّ لم تكن مالًا أو

عقَارا، إنّما هي هذه السّاعة التي تراها أمامك، فما رأيك الآن أليس هذا أعجب ما سمعت؟

قهقه آصف حتّى سالت مدامعه؛ مُتناسيا أنّه يقف أمام قبر أبيه، الذي أُغمِد الثّرى قبل دقائقَ فقط، وقال:

- بلى إنّه كذلك، إنّما لا فرق بين أبي وبين حاتم هذا إلّا بعض الذّكاء الكلاميّ؛ فأبي بوصيّته التي خبّأها في حزام بنطاله جعل كلّ النّاس تنفر منه، وحاتم بوصيّته التي خبّأها في حذائه جعل كلّ النّاس تهبّ إليه.

ما أجمل العدالة

كان مُتقوقعا في ملابسه يُحاول التّغلب على صقْعة البرد، لم تكن بالملابس حقّا فهي بالكادِ تستر عورتَه؛ نعلٌ متيبّس لا يمنعُ مُؤخّرة قدمه من أن تَكنس الأرض؛ عَباءة مصنوعة من قماش الجُوخ تتخلّلها عشرات الثّقوب؛ وتلك القبّعة الصّوفيّة الخشنة مائلة قليلا على جبهته تحاول تدفئته. لِحيته تكاد تغزو كلّ أنحاء وجهه بلونها الرّماديّ الميّت، عيناه كعيني فأر صغير؛ زرقاوان خاليتان من المشاعر، لا يتحرّك بؤباهما إلّا نادرا. حاجِباه كسَعف نخيلٍ يابس، ووجهه مليء بالتّفاصيل التي رسمتها الأيّام ونقشَها الزّمن.

يجلس على درج إحدى البِنايات القديمة التي هجرها سكّانها، يُراقب هؤلاء البشر الذين لا تكنّ حركتهم. رجالٌ يلهثون كالكِلاب من أجل لُقمة العيش؛ شبابٌ طائش لا يعرف من

الحياة؛ سِوى تلك السّعادة المؤقّتة التي تمنَحها له سيجارة الصّباح، وكلمة أحبّكَ عند المساء. طُلّاب المدارس كالسّلحفاة، يمشون حاملين تلك البيوت على ظهورهم؛ نساء يتجوّلن دون وجهة محدّدة كأوراق تحرّكها الرّياح، فتيات كالزّهور التي تطفو فوق البِرَك، لا تكاد تُفرّق بين الذّكر والأنثى وسط هاته الجموع.

وفي هذا الجوّ غير المفهوم تلمحُ عيناه الصّغيرتان، تلك المِحفظة البرّاقة الحمراء، تهوي من بين أحضان سيّدة راقية تبدو في العقد الثّالث. يُراقب بصمت، وبعد أن يتأكّد أنّ لا أحدَ من هؤلاء البشر؛ مُتواضِع كِفاية لِينظرَ تحت قدميه فيُبصِرَها، ولا تِلك السّيّدة من الإناث اللّواتي ينتبهن لأدقّ التّفاصيل، ينهضُ بخطوات مُرتعشة كأنّه عنكبوت تمّ دعسه، ليمدّ يده وينتشِلها بخفة هُريرة سوداء، من بين حوافِر البشر. يتفحّصها بكلتا يديه، رائحة عطريّة قويّة تنبعث منها، يبدو أنّ صاحِبتها من النّساء

اللّواتي يُغرقن أغراضَهنّ وأيديَهنّ في العطور، حتّى يجذِبن انتباه الأُنوفِ إليهنّ.

يفتحها ليجد عَشر ورقات من فئة الألفين، يُحيط بها وصلُ تسليم من البنك. يُغلقها بسرعة فهو ليسَ مُعتادا على رؤية هكذا مبلغ، ولقد سمِع كثيرا عن فتنة المال. يرفع بَصَره إلى نهاية الطّريق مُحاولا إيجاد تلك السّيّدة، لم يكن بالأمر العويص حقّا، فما إن تَرى تلك القِباب التي فوق شعرها مرّة يستحيل أن تُضيّعها. ورغم جسده الذي يطلب الرّاحة ينطلق مُندفعا بين الجُموع، غير آبهٍ لمعدته الخاوية، ولا لأقدامه اليابسة. يركضُ تارة على الرّصيف، وتارة أخرى يُزاحِم السيّارات على الطّريق. كعاشقٍ يطلبُ وِصال محبوبته؛ كرجلِ قانونٍ يُلاحق هاربا؛ كأُمّ تبحثُ عن اِبنها الضّائع، ينادي على السّيّدة بصوته الخافت الذي يندثرُ وسط كلّ هاته الأصوات.

وها هُو ذا على بعد خطوات من نيل مُراده. لكنّ الأقدار هنا؛ بسيّارةٍ تطرحُه أرضا؛ يسقط مُنكمشا بين أولئك النّاس؛ تختفي نظرته الآمِلة؛ وتسيلُ الدّماء من عدّة أماكن في جسده. يتوقّفُ المارّة؛ تتوقّف السيّارة؛ كلُّ الأنظار مُتّجهة نحو هذا الشّيخ المُنبسط على الطّريق. تَنسلُّ السّيّدة الرّاقية بين الحشود، لِتَرمُق ذلك الجسد بنظرة اِستعطاف، وتميلُ عينها لِتلمحَ محفظتها بين بَراثِن هذا الميت. تتفحّص جنبيها؛ حقيبتها؛ وتتأكّد...تُسرعُ إلى الجثّة وتخطِف محفظتها. تصيحُ وسط الحُشود:"...إنّها محفظتي، لقد سُرقت منّي". يُدافع سائق السّيّارة الذي دون رُخصة عن نفسه، ويُصرّح بأنّ الرّجل العجوز هوَ من كان مُسرعا. ويرمقُ الجميع الشّيخ الميت بنظرة احتقار. يتفرّق الجمْع وتصل الإسعاف لتغطية الجثّة، بينما الجميع يُتمتم ويُثني على السّيّدة الرّاقية؛ لا بدّ أنّها طيّبة ومُبارَكة، لقد عادت لها محفظتها

وأخذت حقّها من ذلك الشّيخ الذي لا يستحي، رغم سِنّه يُقْدم على سرقة محفظة سيّدة محترمة.

تعود الحركة لطبيعتها بعد أن تحقّقت العدالة، لقد تخلّص المجتمع من شخص آخر سيّء، ولم يبقَ سِوى هؤلاء الصّالحون الخيّرون.

السّنديان يمنع من الموت

بينما كانت الرّياح تُلاحق قطعان السّحاب المتفرّقة، لتجمعها معلنة عن بداية الخريف، كان سمعان ذلك الرّجل الكادح الذي يعمل في التّفحيم لإحدى شركات سِكك الحديد، يندسّ من خلال نافذة في أحد مستودعات التّخزين، محاولا التّملص من العمل لهذا اليوم. وبالفعل استطاع ذلك بفضل جسده النّحيل. وما هي إلّا دقائق من الرّكض المتواصل، حتّى وصل إلى أحد المعابر المعلّقة فوق جرف ساحق، توقّف لِهنيهات يسترجع أنفاسه؛ وما إن حدث ذلك، أخذ زفيرا عميقا ثمّ ألقى بنفسه من على المعبر.

بعد ثلاثة أيّام من هذا فتح عينيه، يبدو أنّه مستلق، فكلّ ما يراه هو ذلك المصباح الذي يتدلّى من السّقف. يميل بطرفه قليلا لتقابله حسناء شابّة تجلس على كرسيّ، وتتلو بعضا من التّراتيل الجميلة التي لا يُفهم معناها. إنّها جنازته...أو ربّما هي الجنّة،

هذا ما جال داخل فِكره، لكن ما إن سمع صرير ذلك الباب وهو يُفتح؛ وخطوات ذلك الطّبيب وهو يقترب منه، تعرّف على هاته الغرفة، إنّها نفس الغرفة التي وُضِع فيها آخر مرّة فشلت فيها محاولته في الانتحار. كلّ الحسابات كانت مُعَدة لموته جرّاء ذلك السّقوط من على المعبر، لكنّ شجرة من السّنديان ممتدّة الأغصان والفروع، كانت أسفل ذلك المعبر وصنعت ما يشبه سريرا خفّف من سقوط سمعان. بدَل الموت كان هنالك كسرٌ في ثلاثة أضلع؛ تمزّق في إحدى عضلات فخذه؛ وبعض من الخدوش المبعثرة على بدنه.

- لولا شجرة السّنديان لما كنتَ حيّا الآن يا سيّد سمعان، لكن من الواجب عليك أن تتوقّف عن هاته المحاولات، لقد أرسلتُ طلبا إلى مصلحة الأمراض العقليّة والنّفسيّة، لكن كالمرّتين السّابقتين؛ رفضوا التّكفل بك، بحجّة أنّ ما أُجري

عليك من اختبارات يؤكّد أنّ شخصيتك سويّة وليس بها أيّ شذوذ، ما يتوجّب عليك الآن هو البقاء في بيتك حتّى تتعافى.

- شجرة السّنديان؟ أتقصد أنّها لو لم تكن موجودة لكنتُ الآن ميتا؟

- هذا صحيح، لقد خفّفت من حِدّة السّقوط، وإلاّ لكنتَ لامست حافة الجرف وتمزّقت كما يتمزّق الثّوب الخرق.

بعد ثلاثة أشهر؛ وبينما كان عمّال السّكة الحديديّة يتقافزون هنا وهناك، لتغطية المعدّات من وابل الأمطار الرّعديّة القادمة، كان سمعان يتّكأ على عُكّازه باليد اليمنى، ويُلقي بجسده إلى الأمام وهو يعرج. كلّ شيء جاهز هاته المرّة، لا وجود لأيّ شجرة سِنديان، فقبل أسبوع من الآن قام سمعان بمساعدة عامل اِستأجره، بقطع تلك الشّجرة المتواجدة أسفل المعبر.

ما إن وصل سمعان إلى المعبر، وجد شخصا ضخم البِنية يغلق المعبر بسلاسل ضخمة.

- اللّعنة على هذا...من أنت وماذا تفعل بالمعبر بحقّ السّماء؟

- لقد صدر قرار بإغلاق المعبر، حتّى الانتهاء من المشروع الذي نقوم به أيّها السّيّد.

- حقّا...وأيّ مشروع هذا؟

- التّربة التي تحت المعبر تتعرّض للانجراف، لهذا السّبب أصدرت البلديّة قرارا بغرس ثلاث عشرة شجرة من أشجار السّنديان لحمايتها.

- السّنديان؟ أنت جاهل...إنّك لا تعرف السّنديان، هو لن يمنع التّربة من الانجراف؛ سيمنع فقط النّاس من الموت.

الشّيخ يعقوب

بعد الرّابعة صباحا عندما غادر الجميع الحانَة، مَخمورين مُتمايلين في نشوة تغمُرهم، اِنْساب يعقوب كأفعى مُتخمَة إلى غُرفته في الطّابق العلويّ، لِينَال قسطا من الرّاحة، ويُزيل تلك الأثقال التي على جفونه. وما إن أبصر طرف سريره حتّى رمى بنفسه فوق الفراش، وبعد هُنيهات فقط غطّ في النّوم. ولأنّ الكحول صارت تسري في عُروقه مجرى الدّم، وصل إلى تلك المرحلة التي لم يعد يُفرّق فيها بين ما حدث وما لم يحدث، وبين ما هو حلم وما هو واقع.

فقد رأى فيما يرى النّائم أنّه يمشي حافيا عاريا في أرض جرداء، لا نبات فيها ولا ماء، خاليةٍ من المعالم والملامح، فلا جبلٌ ولا كثيب ولا حتّى حصاة واحدة. وقد رفع رأسه للسّماء فإذا به يُبصر كُرة عظيمة من اللّهب، يَتضارب فيها الشّرر

تضارُب الأمواج، وتنبعثُ منها أيّما سُخونة؛ حرارة تُذيب الشّحم وتنْخُر العظم، خُيّل له أنّها الشّمس. وقد خارت قِواه وارتعشت رُكبتاه كغزال حديث الوِلادة، فَخرّ جاثيا؛ فاغِرا فاه؛ يَقطُرُ عرقا؛ مُرسِلاً لسانه ككِلاب الرّعي. وإذا به يسمع صوتا في الأفق، شبيها بصوت قَعقعَة الأقداح والقَناني، فيُثبّت عينيه في الأفق ويُضَيّق جفونه ليُبصر ثورا عظيم الجُثّة؛ طويل القرنين؛ مَهيب المِشية؛ يقترِب منه وعلى ظهره صناديق مملوءة بالمياه المُترقرِقة. فقفز يعقوب طربا بالفرَج، وهرول مستقبِلا هذا الثّور. غير أنّه ما لَبِث يصل حتّى حرّك الثّور رأسَه ودكّ الأرض بِحافره، وأصدرَ خُوارا عظيما هاجت له الرّيح، واشتدّ خفقان قلب يعقوب له، حتّى أنّه بات يُحسّ بسريان الدّماء داخل عُروقه، وإذا بأطرافه يُصيبها الوهَن والخدَر، فتعجزُ عن حمله لِيسقط صريعا في مكانه.

حتّى يفتح عينيه فزِعا؛ مُستيقظا من نومه مُلتفتا يَمنة ويَسرة؛ ساجدا على أرضيّة الغرفة يقبّلها، راكضا إلى كُوب من الماء يتجرّعه دُفعة واحدة. حامِدا الرّب ومُستعيذا به من هَول هذا الكابوس العجيب. وبعد أن استجمع أنفاسه ارتدى ثيابه، ونزل إلى الطّابق السّفليّ حيث توجد الحانة، من أجل تهيئتها لسهرة اللّيلة. وما لبِث أن وضع قدمه في أوّل الدّرج، حتّى لمح ذلك الثّور العظيم الذي في المنام، فوَلْولَ من ارتعابه ولَطَم خدّه على هذا القدرِ البائس، غير أنّ رَوعه سكن بعد أن أدرك أنّه مجرّد قماشٍ أسود يُغطّي إحدى البراميل. غير أنّ خاطره لم يهدأ، فيعقوب لم يكن ذلك النّوع من الأشخاص الذين يحلمون؛ أو يرَوْن الكوابيس كثيرا، بل إنّ آخر ما رآه في نومه حسبما يذكر كان قبل خمس سنوات، فوَسوس في نفسه إن هذا إلّا تحذير لِخطر يتربّص به، وإنّ عليه معرفة تأويل هاته الأمارات العجيبة، حتّى يتبيّن له هذا الخطر فيتفاداه.

ارتدى قبّعته وأغرق نفسه في العطر ليُزيل رائحة الكحول المتشبّع بها، ثمّ انطلق نحو منزل الشّيخ الورِع والتّقيّ أتون. هذا الشّيخ الجليل هو مَنارة الإيمان والصّلاح في هذه المدينة، بل ربّما البلد، ومن يدري؛ ربّما هو الوسيط بين العباد وربّهم.

مضى يعقوب وهو يكلّم نفسه:

- لا بدّ أنّه يقدر على تأويل هذا الكابوس، بل أكثر؛ إذا كان فيه من الشُّؤم شيء، فسأطلب منه تَميمةً أو حِجابا يَقيني سُوء الطّالع. فما هو إلّا رجلٌ اجتمعت فيه دلائل الصّلاح والبركة، فكم من عقيمٍ أنجبت على يديه؛ وكم من سقيمٍ مُطرحِ الفراش غَدا يطيرُ كالفراشة، بعد أن مسَح عليه هذا الشّيخ الكريم بكفّه.

وما إن وصل يعقوب إلى الحيّ الذي أُشير عليه به، سأل أحد المارة عن منزل الشّيخ أتون، فرفع الرّجل سبّابته وأشار بها إلى

منزل فخم؛ من أربعة طوابق؛ تُحيط به حديقة غَنّاء، وبينما كان يعقوب يطرق باب هذا المنزل كانت دواخله تتساءل:

- أنّى لشيخ في هذا العُمر لا يَمتهنُ أيّ مِهنة، أن يكون له هذا المنزل الذي يُنافس القصور؟ ربّما هو تركة العائلة.. فليكن كذلك؛ ألا يُفترض أنّ أمثال هذا الرّجل الورِع، يقولون إنّهم يترفّعون عن ملذّات الدّنيا وزُخرُفها، ويَكتفون برَغيف خبزٍ وكأسِ ماء، ولِحافٍ يسترُ عورَتهم.

ثمّ أرْدَف مُعاتبا نفسه البلهاء التي تُوسوس له:

- وَيحك يا يعقوب إنّ هذا الشيخ الجليل حيثما حلّ حلّت معه الملائكة، فما بالُك تُلبسه هاته الإفتراءات، أوَ تُريد أن تحلّ عليك لَعنة الرّبّ والملائكة؟

وأثناء هذا قُطِعت حواراته الباطنيّة بفتاة حسناء تفتحُ له الباب، وقد بُهِت وهو يتأمّل محاسنها ويتأمّل إبداع الخلق فيها. فكأنّها لم

تُخلق من طينٍ وخُلِقت من لُؤلؤ، ممشوقة القوام؛ وضّاءة البشرة رغم سُمرتها، رشيقة كأنها سنبلة قمح؛ نجلاء بثغر شَتيت؛ وشعرها حرير مُنسدل، طيّبة الرّائحة كأنّها اغتسلت بالمسك؛ صغيرة الفم، وعظيمة الخصر؛ اجتمعت فيها أُصول الأنوثة، وحتّى صوتها رَخيم به بحّةٌ تنسابُ إلى أُذن الأطرش، وابتسامتها رقية تجعل المسحور يبرأ.

- أهلا يا سيّدي الكريم، كيف أُساعدك؟

- كريم...؟ أنا...عُذرا...ولكن يبدو أنّه...أقصد أنّني أخطأت العنوان يا آنستي، فهلّا تكرّمتِ وكُنتِ نجمتي المُرشدة، لِتدلّي هذا العبد الضّعيف التّائه على منزل الشّيخ الجليل أتون.

وكما تفعل الغواني؛ بابتسامة رقيقة وإسدال للأشفار، قالت الآنسة:

- لقد وصلت بالفعل، هذا منزل الشّيخ أتون، فتفضّل بالدّخول أيّها العبد الضّعيف التّائه لِنقضيَ حاجتك.

وكما يجذِب المِغناطيس الحديد؛ طَفا كما السّحاب، ودخل المنزل يَتقصّى شذى الورد الذي يَنبعث من الآنسة، غير أنّ الوساوس قطعت المشهد مرّة أخرى:

- هل هذه ابنة الشّيخ؟ يستحيل هذا، فهو عازف عن الزّواج، فهؤلاء لا يدْنون إلى النّساء، بل لا ينظرون في وجه المرأة ولا يكلّمونها إلّا من وراء حِجاب. لكن ما بالُ هاته الحسناء، تتمطّى في الأرجاء كأنّها مَليكة البيت، وليس عليها سِوى هذا الثّوب الشّفاف الذي يكشف ويُفصّل...؟

- تفضّل أيّها التّائه وادخل على الشّيخ ليرويَ ظمأك، ويقضيَ حاجتك، ويُداويَ روحك المُدنفة، ويبسط دِفئه على قلبك، فلا تخرجُ من هنا إلّا وأنت راضٍ.

تَمْتم يعقوب وهو يدخل الغرفة: ليست فاتنة، بل هي الفتنة عينها، لها سَليقة لُغويّة، وبلاغة حلوة وكلام يسلب لبّ الرّجل العاقل.

- يا أهلا بالعبد التّائه الذي لَوّثته الخطايا، وعاش حيرانا وسط البرايا، هلُمّ واجلس هنا، وحدّثني لِأنفّس عن كُربتك؛ قال الشّيخ أتون.

كان شيخا في السّبعينيّات من العُمر؛ أصلع الرّأس؛ يُخفي صَلعته بعمامة بيضاء، ورغم أنّ المنطق يقولُ بانتشارِ الشّيب في لِحيته، غير أنّها كانت سوداء، أفطس الأنف؛ أسنانه مَصفوفةٌ مُتراصّة؛ وعليه حُلّة ناصعة، قد جَلس على الأرض يَتوسّط مَدارات من الشُّموع. أمّا الغرفة فكانت شِبه مُظلمة، ذات نمطٍ عتيق؛ مُطرّزة الأركان والحواشي؛ لا تبدو فيها سِوى خيالات لِتماثيل وكُتب.

شعَر يعقوب بقُشعريرة وزمهرير يَخزُّ بدنه، فأطرق وحبَسها في نفسه أنّها لا بدّ هَيبة المُثول أمام شيخ

مُبجّل، ثمّ كَسر صمته وقال:

- أيَا قُطب المعارف، ومن أوتيَ العِلم والحكمة والبصيرة، وكُشفت له حُجب الغيب. يا من شفى المريض؛ وساعد المحتاج؛ وأعطى الفقير؛ وكسا العريان؛ وأطعم الجوعان؛ وأخذ بيد الحيران. إنّني جِئت إليكم لِأقصّ عليكم رُؤيا رأيتها في منامي، بل قل هو كابوس تربّص بي. مُتأمّلا أن أجِد التّأويل والتّوجيه من عندكم.

طأطأ الشّيخ أتون رأسه وقال: لا تجزَع يا ولدي، وأفرغ عليّ كابوسك وهمّك، وإنّي بفضل الله لا بفضلي أجد لك حلا.

- أيا سيّدي المُبارك، لقد شاهدت عجبا عُجابا، رأيتُ نفسي وحيدا حافيا عاريا، في بطحاء واسعة جُرُز، ليس فيها من

أمارات الحياة شيء. وما إن خارت قِواي وشعرتُ بالهوان وسقطت على الأرض، حتّى سمعتُ صوت تلاطم ذَرّات الماء. فرفعت بصري لِأرى ثورا عظيما أشبه بالفيل، في حِمله قَنانٍ من الماء، فاستجمعتُ نفسي وهمَمتُ أجري ناحِيَته حتّى أرويَ عطَشي. فإذا بهذا الثّور يضربُ بحافِره فتنشقّ الأرض، ويُصدرُ خُوارا أشبه بصُراخ نساء الأرض مُجتمعات، فيَمنعني من نيل مُبتغاي وإنقاذ نفسي. وبعد هذا فتحتُ عينيّ فَزِعا لِآتي فورا إليكم، فماذا أنتم مُشيرون عليّ يا شيخنا؟

- إنّه لَشيء عجيب ما رأيته يا ولدي، أخبرني بكلّ صدق كيف هو سعيك؟ أيّ طريق تسلك في هذه الحياة، وما هو العمل الذي تسترزق منه؟

تكوّم يعقوب خجِلا ثمّ قال:

- أيا سيدي إنّكم تعرفون أنّ الأحوال قد ساءت، وَمالَنا سوى أن نُخلط بعض الحرام ببعض الحلال حتّى نعيش، والله سيغفر لنا ضعفنا، فأنا يا سيّدي صاحب خمّارة.

تَهيّج الشّيخ واغتاظ، وتدرّجت الحُمرة على وجهه، وبرزت عيناه حتّى كادتا تسقطان؛ وَكَزّ أسنانه؛ ثمّ صرخ:

- أيا ويحك...حنانيك يا ربّي، أوَ لا تخجلُ من نومك ليلا، ثمّ تأتيني وتستفسر مُتعجّبا عن هذا الكابوس؟ إنّما ليس كابوسا؛ بل تحذيرا وتنبيها لك أيّها الضّالّ. فتلك الحالة التي رأيتها؛ حافٍ عارٍ وحيدا في أرضٍ جرداء، هي حالتك يوم الحساب، أمّا الماء العذب الذي كنت تُهرول نحوه هو الجنّة والخلاص. لكن هنالك عَقبة تحول بينك وبينها، وهو الثّور العظيم، ذلك هو الخمر، هذا العمل الملعون الذي أنت فيه سيحرِمك من الوصول إلى الجنّة والتّمتع بها، هذا هو تأويل رُؤياك.

- رحمتك يا ربّي، وماذا تشير يا سيّدي؟ أشر عليّ حتّى أتجنّب حالة الخِزي.

- عليك أن تُغلق خَمّارتك، ولا تقرب كؤوس النّبيذ مرّة أخرى، واعتزل كلّ ما يقرّبك منها وإيّاك والخوض فيها. وأكثِر من الصّلاة والدّعاء والصّدقات، وكُن زاهدا في الدّنيا، لعلّ الله يغفر لك ويعطف عليك.

تَلَمْلمت الدّموع في مَحاجر يعقوب، ووجّه نظره إلى سقف الغرفة وقال بنبرة مِلئها الحسرة:

- عهدٌ عليّ يا سيّدي أنّني سأخرج من هنا فورا لأبدأ حياة جديدة؛ سأبيع خمّارتي وأتصدّق بمالها، لعلّ في هذا توبة لي.

ثمّ انتفض من مكانه وهرَع إلى الشّيخ يُقبّل جبينه فكفّه، ويطلب منه الدّعاء بالخلاص. مَسح الشّيخ أتون على رأسه ودعا له بالتّيسير، ثمّ سأله: أما تودّ أن تبدأ توبتك الآن أيّها العبد التّائب؟

قال يعقوب بلهفة الأطفال: طبعا يا شيخي، أشِرْ عليّ.

- إذن يا بنيّ، أَدخل يدك إلى جيبك وجُدْ بما لديك وضَعْه فوق الطّاولة، ليستفيد منه المُحتاجون والمُحتارون.

أخرج يعقوب من جيب بنطاله ثمّ من جيب سُترته ما يقارب الثّلاثة آلاف، وضعها فوق الطّاولة ثمّ خرج مُودّعا الشّيخ الجليل أتون. غير أنّه وقبل أن يَضع طرَف قدمه خارج الغُرفة، عادت الوساوس لتطرق بابه مرّة أخرى، ففكّر قليلا ثمّ استدار إلى الشّيخ وقال:

- يا شيخي، اعذر فُضولي وحيرتي، لكن في خاطري سؤال يُحيّرني...هذه الآنسة الوضّاءة التي تنسابُ في المكان، دُونما سِترٍ ودونما خجل، من تكون؟

نَحْنح الشّيخ أتون ثمّ قال:

- أما ترى سِنّي ومشاغلي أيّها الشّابّ؟ أنا قد اعتزلت الدّنيا بما فيها، ولَيس لدي وقتٌ أضيّعه على قِوامة نفسي، فأتيت بهذه الكريمة التي تراها. وماهي إلّا يتيمة وجدتها في إحدى رَحلاتي، فأحضرتها وربّيتها. وهي الآن تقوم على خِدمتي؛ فتطبخ وتنظّف وتستقبل الضّيوف وما إلى ذلك. ثمّ إنّي علّمتها من العلوم ما يقيها الفِتن، ويجعلها تقيّة صالحة لا يَزيغُ بصرها.

طفِق يعقوب يبتسم مُعاتبا نفسه على وَساوِسها، مُودّعا الشّيخ المبجّل والآنسة الطّاهرة. ثمّ إنّه وقَبْل عودته إلى البيت مرّ على أحد كِبار التّجار في المدينة، وعرض عليه شراء خمّارته بما فيها مِن طاولات، وكراسٍ، وفرْش وسلعة. ولم يتكلّف عناء المُساومة والتّفاوض، بل قبل بالمبلغ الذي عُرض عليه دونما تفكير، ثمّ ودّع يعقوب هذا التّاجر على عهْد أن يُسلّمه الخمّارة خلال أسبوع.

في ذات اللّيلة، وبينما كان يعقوب يجمعُ أغراضه في صناديق ويحمد الله على هاته التّوبة النّصوح، سمِع طرْقا خفيفا على باب الخمّارة، فتوجّه لِفتحه جارّا أعطافه، مُتبرّما أنّ هؤلاء الحمقى لا يفهمون معنى كلمة مغلق. وما إن فتح الباب وشاهد الطّارق تَقلّب فجأة وتلوّن كالحرباء، فما الطّارق سوى تلك الآنسة الكريمة التي يَهيمُ بها العقل. ويبدو أنّ المفاجأة لم تغلب يعقوب فقط، فهي أيضا قد فَتحت عينيها وضَمّت شفتيها وأطبقت أصابعها، وما بَرَحت تجد نفسها مُلبيّة دعوة يعقوب بالدّخول.

- أيا أهلا بمليكة الحُسن وأجمل الفاتنات وأشرف الكائنات، لقد أنرْتِ المكان وفَرّت الشّياطين ما إن اشتمّت طِيب أريجك، إنّي أتساءل عن سبب تشريفك لي في هاته اللّيلة المضجرة؟

- عذرا على الإزعاج والإشغال، وشكرا على كلامك الجميل البديع، غير أنّ قدومي ليس سِوى صدفة أيّها السّيّد الفصيح. فقد كنت أستخبرُ هنا وهناك عن أجود أنواع الشّراب، فلبثَ بي

المُقام واجتمعت الآراء على أنّ خمّارة يعقوب هي الأصل، وأنّ نبيذها من عِنب الجِنان، ولم أدرِ أنّي ألقاك هنا فأنا تفاجأتُ مثلك.

- أيا ويلتاه -صرخ يعقوب- أسفي عليك أيّتها الطّاهرة، يبدو أنّ الشّيطان قد أغواك وفتَنك لتخرجي قلبَ اللّيل تبتغين الشُّرب، يبدو أنّ هوى النّفس لديك قد غلب ما رُبّيت عليه عند الشّيخ آتون.

ابتسمت ثمّ ضحِكت وقَهقهَت مُتجرّدة من ثوب الوقار:

- أما إنّي رأيتُ وعرَفت، لكن لم أرَ ولم أعرفْ مثلك يا سيّد، مَن قال أنّني رُبّيت على يد الشّيخ آتون، إنّما أنا خادمة، أو الأصحّ غانية جلبها الشّيخ لمُؤانسته وإمتاعه. وأمّا عن شُربي؛ فأنا أحتسي من رديء ما هو في المنزل، وما سآخذ الآن ليس من

نصيبي، بل من نصيب الشّيخ آتون. أما إنّك مسكين أيّها السّيّد وعلى عينيك غِشاوة.

جفّ حلْق يعقوب وضاق صدره وارتعشت أطرافه؛ وقال مُندّدا:

- ويحكِ يا آنسة، إنّ الكذب على الصّالحين يُورّث السُّخط في الدّنيا والوعيد في الآخرة، فتَرفّعي عن هذا.

- ألا يا سيّدي يبدو أنّ الكلام سيطول، وأنا ورائي مشاغل، فهاتِ زجاجتين مِن أجْود ما عندك، وهاكَ ثمنها ودَعني أمضي.

صرخ يعقوب:

- أما فهمتِ؟ إنّني قد أغلقت الخمّارة، ولن أبيعكِ شيئا، فقد رجَعت عمّا كنتُ عليه.

تنهّدت الآنسة:

- إنّك رجلٌ مسكين حقّا، وإنّي لأحزن على حالة الجهل التي أنت فيها، أما سألت نفسك ماذا تفعل فاتنة كهذه في بيت شيخٍ كهذا؟ ومن أين يعيش هذا الشّيخ هاته الحياة الرّغدة؟

- بلى جالَ هذا في خاطري، لكنّها وساوس طردتها، والآن عادت إليّ بعد أن نبشتِها، فأجيبيني عنها.

- إنّ الشّيخ قبل عامين قد خطّ الرّحال عند رجل سياسةٍ يبتَغي نيل المَراتب، من أجل أن يكتب له حِجابا، أو تميمةً تَقيهِ من العين والحسد وغدر الزّمان والإنسان. وأنا كنت إحدى الغواني اللّواتي يخدُمن ذلك السّياسيّ، فلمّا حضر الشّيخ رآني أتجوّل في المنزل، وأرفع هذا وأُحضر ذاك في غنجٍ ودلال، أصرّ على صاحبي أنّه لن يأخذ دِرهما واحدا مقابل خِدمته، ولن يتزحزح من مكانه إلّا وأنا معه. ولأنّ عملي سيان عند كليهما لم أجد مُشكلة في ذلك، فأتيتُ رُفقة الشّيخ وصِرت عشيقته، أُطربه

بعذب الكلام والألحان، وأُداعبه وأُراقصه، فإذا ما حلّ الشّتاء كنتُ له فِراشا وإذا ما...

- صمتا أيّها الشّيطان، أما إنّ حقيقتكِ قد بانت، فما أنتِ إلّا فِتنةٌ وشَرَك، وأمّا ذلك الشّيخ المُدّعي فلعنةُ الله عليه، والآن انقلعي من هنا وانظري في خمّارة أخرى لِتجدي حاجتك.

- يا سيّد، وما ذنبي أنا حتّى تُلبسَني لِباس السّوءة، إنّما أنا أمْتهنُ هذا لِما وجدتُ فيه من كسْب ومعيشة، كَحالكَ أنتَ تماما. فلا فرْق بيننا في الإثم، غير أنّني أشدّ حاجةً وقهرا منك. فإن عُدت الآن خاليةَ الوفاض لَينزلنّ عليّ غضبٌ لم تسمع به قبْلا، ولَأبيتنّ هاته اللّيلة على ضرْب السّياط، فارفق لحالي واعطف عليّ، ولا تتركني أبرحُ من هنا إلا وأنا حاملةٌ ما أطلب.

أغمضَ يعقوب جفنيه وقد سرى في نفسه ضربٌ من الشّفقة والرّحمة، الممزوجة ببعض الإفتتان بهذه الآنسة. كان ذلك النّوع

من الرّجال الّذين تَلينُ قلوبهم، بمجرّد النّظر إلى عيون النّساء المبلّلة، وبعد تفكيرٍ وأحوال وشطَحات قرّر أن يُعطي الآنسة مطلبها، غير أنّه لن يقبض دِرهما، فلقد قرّر بالفعل أنّه لن يتكسّب من هذا مجدّدا، واعتزم أن يجد عملا شريفا.

في صبيحة الغد، وبمجرّد أن بدأت النّوافذ تُفتح، والأعمدة الرّماديّة تتصاعد من مداخن البيوت، هبّ يعقوب كالبرق على منزل الشّيخ أتون، وهذه المرّة دون أن يَلتفت لِفاتحة الباب، حشَر نفسه ودخل مباشرة إلى البيت، ثمّ إلى غرفة الشّيخ.

- ويحك...يا هذا أَجُننت...كيف تدخل بيوت النّاس دون استئذان؟ هذا بيت له آدابه وليس حظيرة بقر. بادره الشّيخ أتون لِيردّ يعقوب:

- كفاك تفلسُفاً وتَفيقُها يا نابغة زمانك، فقد ذاب الثّلج وبان المرْج، ويبدو أنّ الثّور الذي في منامي لم يكن سِواك أنت تعكّر

صفوي وتمنعني عن العيش الهنيء. غير أنّي بِتّ اللّيل ساهرا أُفكّر وأفكّر، وقد ارتأيتُ إلى أفضل فكرة. لقد تركت مهنتي، غير أنّي عدلت عن بيع الخمّارة، وقرّرت أن أغيّر حلّتها فقط. فارتأيت أن أشتريَ بعض السّجّاد التّركيّ؛ وعشرات من الشّموع المعطّرة؛ وبعض القناديل والفوانيس؛ وأنواعا من البخور والطِّيب؛ وعشرات من الكتب التي أُبطّنُ بها الجدران؛ مع ستائر سوداء اللّون. كما اشتريت زيت اللّوز لِأطيلَ لِحيتي، وسأبتاع لنفسي جبّة وعمامة. لقد اقتديتُ بكَ يا شيخنا الجليل وقرّرتُ أن أصيرَ أنا أيضا فقيها مُباركا، أُشفي المرضى وأُرَبّي اليتيمات الحسناوات، فكلّ الشّكر لك يا سيّدي لأنّك فتحت بصيرتي، وإنْ كانت لك حاجةٌ أقضيها لك أو منام تَودّ تفسيره، فما عليك سِوى أن تسأل عن منزل الشّيخ يعقوب.

أفكارٌ مُرهقَة

كعادتي تأخّرت هذا اليوم في العودة إلى البيت، تعطّلت مرّة أخرى إحدى الآلات في المصنع، واضطررنا إلى إصلاحها حتّى وقت متأخّر، أو الأصحّ أنّني اضطررتُ إلى إصلاحها، فأنا الوحيد الذي يعمل في ذلك المصنع.

رغم أنّنا في فصل الرّبيع، إلّا أنّ السّماء استخرجت معطفها الشّتويّ باكرا. الأمطار تتساقط منذ ساعات والرّيح تعصف بكلّ ما يعترضها. صعدتُ الدّرج إلى شقّتي وكلّ خطوة أخطوها أثقل من سابقتها، وما إن بلغت الباب لاحظت كومة سوداء أمامه، لم أتبيّن ما هي، فكلّ الأركان مطليّة بالظّلام، ويبدو أنّ المصباح الخارجيّ قد احترق مجدّدا. عندما خطوتُ أمامها اتضح أنّها قطّة سوداء، قفزتْ من مكانها وقفز قلبي من مكانه، ركلتها

بقدمي إلى آخر الرّواق، فتوقّفت واستدارت، ثمّ حملقتْ فيّ بنظرات ثاقبة برّاقة قبل أن تنصرف.

دخلت الشّقّة ورائحة كريهة تطوف، يبدو أنّ المرحاض أصيب بالغثيان مجدّدا، لم أشأ حتّى أن ألقي نظرة عليه، وذهبت مباشرة إلى غرفتي لأنام. استلقيت على ظهري كالمرأة النّفساء، غير أنّ الأرق قرّر أن يحضنني طويلا هذه اللّيلة، واضطررت أن أمارس عادتي؛ في إعادة صياغة الحوارات التي أجريتها اليوم، والاستماع إلى حركة السّيّدة السّاكنة فوقي، لم أستطع رؤيتها يوما، لكنّني صوّرتُها داخل مخيّلتي أكثر من مرّة.

استيقظت بعد ثاني مرّة يرن فيها المنبّه، كان مضبوطا بشكل يوميّ على السّاعة السّادسة. كلّ أطرافي مخدّرة، جررت نفسي إلى الحمّام حتّى أغتسل، لعلّ بعض الماء البارد سيعيد لي دبيب الحياة، لكن...يبدو أنّ المياه مقطوعة مجدّدا، أدرتُ وجهي إلى المرآة التي لا تكذب، حدّقت قليلا فيها، لا أتذّكر آخر مرّة

نظرت فيها إلى نفسي بهذا الإصرار، بالكاد تعرّفتُ عليّ، التّجاعيد تتلاعب بجبهتي، أنا في الثّامنة والعشرين غير أنّي أبدو في الأربعينيّات؛ الشّيب يتسابق على طرفيّ شعري، أسناني تتداعى وعينيّ كحبتيّ تين مجفّف، ثقيلتان جدّا بالكاد أستطيع فتحهما.

تعسا لكلّ هذا، لقد نسيتُ نفسي تماما، كلّ هذا بسبب ذلك العمل، أنطلق صباحا قبل استيقاظ النّاس؛ وأعود ليلا والنّاس نيام كأنّني ثور حقل. وفي النّهاية يقابل كلّ هذا بالإجحاف، أربع شهادات مرميّة في الخزانة، لا تغني عنّي شيئا في ذلك المصنع، أنا الوحيد الذي يعمل؛ عامل ينام أثناء الدّوام؛ عامل يتغيّب ويفبرك الحجج؛ فتاة لا تعمل بتاتا لأنّها عشيقة ربّ العمل، وآخر الشّهر نتحصّل على نفس الرّاتب، أين العدل في هذا؟

ويا ليتني أستفيد من الرّاتب الزّهيد، لم أبتع ملابس جديدة منذ سنتين، فواتير الماء رغم أنّه ينقطع عشرين ساعة في اليوم،

فواتير الكهرباء والمصابيح تنفجر في وجهي كلّما أنرتها، والثّلاجة أيضا زادت الطّين بلّة وتعطّلت، وتكالب عليّ جسمي بعد أن أصبت بالحمّى الشّهر الماضي، وذهبت إلى الطّبيب واشتريت كلّ تلك الأدوية، والشّهر الذي قبله اشتريت مدفأة لأنّ القديمة تعطّلت. والآن ها هو ذا المرحاض يسرّب منذ أسبوع ولا بدّ من إصلاحه، أيّ حياة هذه؟ وكأنّها حكم بالأعمال الشّاقّة لا غير.

أليس من المفترض أنّ من يكدّ ويجتهد ويخلص نيّته يكافئ ويقابل بالخير؟ لكن لماذا أقول كلّ هذا؛ الحلّ بسيط؛ سأترك هذا العمل وأبحث عن آخر، لا...هذا غير متاح، هذه الوظيفة السّادسة التي أحظى بها ولا يعقل أن أتركها هي أيضا؛ إذ ماذا سيقول النّاس حينها؛ سيقولون إنّ الخلل فيّ أنا وليس في الوظائف. لكن أتعلم؛ ربّما هذا صحيح، ربّما الخطأ ليس في العمل ولا النّاس، ربّما أنا هو الخطأ، لكنّني لا أقترف أيّ

جريمة ولا أقرب أيّ انحراف، أو من يدري ربّما إذن الخلل أعمق، ربّما الخطأ ليس في أفعالي، بل في وجودي في حدّ ذاته، ربّما ما كان ينبغي أن أكون موجودا في هذا العالم، أو على الأقلّ ألّا أكون إنسانا؛ لو أنّني كنت سحابة مثلا أو شجرة ليمون لكان أفضل.

هذا يكفي، يجب أن أتوقّف عن الثّرثرة، وأمنع أفكاري من التّكاثر، وأبحث عن مغزى لحياتي، بدل أن أبقى كالبهائم، أعمل من أجل أن آكل وأنام، أريد أن أتزوّج وتكون لي أسرة، لأقضي ما تبقّى من حياتي في حضن امرأة تحبّني وأولاد يحترمونني، لقد جربت كلّ شيء بشتّى الطّرق، درست؛ اجتهدت؛ عملت وبحثت وماذا كانت النّتيجة؟ أعيش منذ خمس سنوات في شقّة كريهة الرّائحة، من غرفة واحدة ومطبخ بالكاد يكفي شخصين للوقوف فيه، تحت سيّدة لا تتوقّف عن النّقر المتواصل بحذائها، ألن يتغيّر هذا؟ لا بدّ من حلّ في زاوية ما هنا أو هناك.

إنّني اليوم فقط صرت أفهم، أفهم لماذا يسأم بعض الأشخاص من الحياة، أدرك سبب انتحارهم، ولكن ماذا يلاقون من الانتحار؟ هل يحسّون بالسّعادة التي أبحث عنها؛ يتخلّصون من مشاكلهم وآهاتهم؛ يشعرون بالرّاحة؟ لماذا إذن...لماذا لا أجرّب الانتحار...أنت لا تعرف شيئا حتّى تجرّبه، ولو كان الانتحار سيّئا حقّا؛ فلماذا يستمرّ النّاس في الانتحار كلّ يوم، ولكن كيف سأنتحر...هل أقطع شريان يدي كما تفعل الفتيات؛ أو ربّما أضرم النّار في جسدي النّحيل، لا...لا؛ حتّى ولو كان جسدي يابسا فلن يحترق بتلك السّهولة، فإذن سألقي بنفسي من على جسر أو سطح عمارة، لا...هذا غير ممكن أيضا، سأعيش سقوطي لحظة بلحظة كأنّه شريط إعادة لحياتي، وجدته...الحلّ بسيط أنا سوف...ما هذا...؟ ما هذه الخشخشة التي على الباب؟

ذهبت إلى الباب وفتحته، وماذا أجد؟ إنّها تلك القطّة التي ركلتها بالأمس تبعث لي نظرة استجداء، ترفع ذنبها وتموء بين قدميّ،

وما ذلك هناك؟ قطّتان صغيرتان تختبئان في الزّاوية، لا بدّ أنّها صغارها، حقّا؟ هل عادت هذه القطّة تستجديني من أجل صغارها؟ رغم أنّي ضربتها بالأمس، لقد تحمّلت همجيّتي ووحشيّتي من أجل صغارها. صوت سيّارة؛ لا بل صوت شاحنة تدخل الحيّ السّكنيّ، لا بدّ أنّها شاحنة جمع القمامة، إنّهم الأشخاص الوحيدون الذين يعملون بجدّ ودون تذمّر في هذا العالم، تبّا...شاحنة القمامة...هذا يعني أنّها السّابعة، لقد تأخّرت عن عملي، عليّ الذهاب فورا، سأوبّخ ككلّ يوم، ويُخصم من راتبي مجدّدا، رغم أنّني الوحيد الذي يعمل في ذلك المصنع.

أحبّك يا يونس

كان يونس رجلا تقليديّ المشاعر إذا ما تعلّق الأمر بالحبّ، كان كذلك القِسّ الورِع الذي تَودّ كلّ ذرّة فيه اِرتكاب بعض الآثام، وتذوّق طَعم الغرام، غير أنّ خوفَه من نظرة النّاس الدّونيّة، وما سيَعيشه من اِستنكارٍ واِستحقار منهم، كانت تجعله يرجع خطوة إلى الوراء، ويَنزوي بعيدا عن ضوء النّساء. لقد حاول مِرارا وتكرارا أن يُجرّب ذلك الحبّ الذي يتحدَّث عنه الجميع، أن يشعر بالدّفء في ليالي ديسمبر الباردة؛ ويسدّ تلك الفجوة الذي تتوسّط صدره، أن يتذوّق تلك الحلاوة التي يتغنّى بها الشّعراء في قصائدهم، ويقضي فيها أعتى الرّجال نَحبَهم، وأن يفهم تلك النّظرات التي يتبادلها العشّاق في الحدائق؛ وتحت القناطر؛ وفي المقاهي. لكنّ كلّ محاولاته باءت بالفشل، فلطالما استصعب قول كلمة أحبّك لأيّ امرأة عرفها. ليس جُبنا ولا

خجلا؛ وإنّما ترَفّعا، إنّه ذلك النّوع من الأشخاص الذين يُؤمنون أنّ الرّجل، ما إن يقول لإحداهنّ أحبّك يتجرّد من فُحولته، ويصير دِيكا مَخصيّا.

ولهذا كان يونس دقيقا جدّا في اختيار علاقاته، بل حتّى محادثاته، فنادرا ما كان يخوضُ النّقاشات مع النّساء. فكونَه رجلاً لبِقا إلى حدٍّ ما، تكسوه مسْحة من جمال، كلّ خشيته كانت أن تطرح عليه إحداهنّ السّؤال الشهير إن كان له حبيبة.

بل حتّى مع الرّجال؛ كان ينتقي كلماته كعجوز تُنقّي حبّات العدس، ولهذا كلّما التقى بأحد أولئك الذين يُدندِنون كلاما عن الحبّ، أحسّ إحساس الواجب بأنّ عليه أن يحرّر هذا الإنسان من الأوهام التي تكبّله ولا تدعه يعيش حياة حقيقيّة. وقبل أن يضع يده على كتف أحدهم، ويدعوه للعشاء يسأله إن كان أعزبا، فإن كان كذلك فهو الخِلّ المُنتظَر، أمّا إذا كان متزوّجا فاللّعنة

وكلّ اللّعنة، يهجره ولا ينظرُ في وجهه مجدّدا، فالمتزوّجون كلّهم مستنعجون حسب يونس.

غير أنّه كان رجلا متضاربَ المشاعر؛ فبينما كان يصوم عن البوح بحبّه، كان يرغب بلهفة طفلٍ صغير في أن يسمع هذه الكلمة، أو حتّى همسة عابرة تقول له أنا أحبّك، بل إنّ الجنون وصل به ذات مرّة أن سجّل مقطعا من أحد الأفلام، ليستمع مرارا وتكرارا إلى تلك البطلة وهي تعلن حبّها لبطل الفيلم.

أعزّ أصدقاءه كان جرجي؛ رجل يافع في الثّلاثينيّات؛ يعمل في دار الأوبرا؛ إذا لمحته بتلك البِذلة وربطة العنق القصيرة؛ وتسريحة الشّعر الإيطاليّة، حسبته عندليبا رخيمَ الصّوت، غير أنّ عمله في الدّار كان يقتصر على إزالة الغبار من على السّتائر والمقاعد.

في إحدى الأمسيات، بينما كان جرجي يغادر الدّار دخل عليه يونس مُتهلّلا؛ طربا؛ كطفل وجد عُملته الوحيدة التي سقطت منه:

- وجدتها يا عزيزي جرجي ...وجدتها...

- ماذا وجدت يا يونس؟

- وجدت الذي سيقول لي أحبّك يا يونس.

- اللّعنة...هل أنت حقّا...وأخيرا، ظننتُ أنّك لن تقول هذا يوما.

- إنّه أنا...ودار الأوبرا...إنّها فكرة عبقريّة...

- ماذا تقول...هل أنت مخمور؟

- أنا لم أكن واعيا وصاحيا كهذا اليوم يا صديقي...هذا المكان، أليس مُصمّما لترتدّ من على جُدرانه الأصوات يا جرجي...؟ إليك هذا ...

بدأ يونس يصرخ:

- أنا أحبّ الشّمس...انتشر الصّوت بقوّة في كلّ مكان...أنا أحبّ الشّمس ...

وواصل يونس الصّراخ:

-" أنا رجلٌ محترم...اللّيل هادئ...صديقي جرجي..."

وفي كلّ مرّة كان يرتدّ الصّوت.

قفز يونس إلى وسط الصّالة، وفتح ذراعيه كأنّه سيُحلّق وصرخ:

" أنا أحبّك يا يونس ".

غير أنّ الجدران لم تردّ عليه، واصل الصّراخ والإعتراف بحبّه لنفسه، غير أنّه لم يصدُر أيّ صوت لِيردّ عليه. سقط يونس

جاثيا وبدأ النّواح مُؤمنا بأنّه لم يُخلق للحبّ. تقدّم منه جرجي وجلس بجانبه، ربّت على كتفه وقال:

- أتريدُ امرأة تقول لك أحبّك يا يونس؟

- نعم يا صديقي أريدُ هذا بشدّة.

- اللّعنة عليك يا رجل، استجمع نفسك الآن وسأوصلك إلى منزلك، كلّ هذا الصّراخ الذي صرختَه هنا، كان الأحرى بك أن تدّخره لزوجتك، حينها ما كانت ستقول لك أحبّك يا يونس فقط، بل كانت ستطبعها وشما على جبينها.

قهوة؛ حليب؛ وأشياء أخرى

السّاعة المعلّقة فوق الباب الكبير بدقّتيه؛ كانت تُشير إلى الواحدة زوالا. هؤلاء المُنتظِرون السِّتة هنا منذ التّاسعة صباحا، كلّ واحد منهم معه بطاقة مغروزة جِهة قلبه، كُتبَت عليها أسمائهم؛ أعمارهم؛ وجِنسهم. ثلاثة رجال وامرأتان، وشخص آخر. المرأة الجالسة على الكرسيّ الخشبيّ في الزّاوية اليمنى، لم ترفع بصَرها عن حذائها منذ وصولها، تُحدّق فيه؛ تمسحه تارة بمنديل رماديّ اللّون، وتارة تُمرّر إبهامها المنقوع في فمِها على حوافه. رجلٌ ضخم الجثّة غزيرُ شعرِ الشّارب أسْودُه مع بعض الإصفرار، كان يتظاهر بقراءة الجريدة، بينما كان يُحملق بجزء بسيط من عينه مع ذلك الشّخص الآخر. هذا الأخير كان ذا شعرٍ قمحيّ ممزوجٍ بلون مُحمرّ، مع بعض الخطوط المُتقطّعة المنقوشة على جانب رأسه الأيمن. كان يرتدي سِتّة خواتم ثلاثة

منها في إصبع واحد، لم يُعر انتباهه لأحد، ما عدا بنطاله القصير الذي كان يشدّه بين الفينة والأخرى إلى الأسفل.

في وسط الرّواق كان ذلك الرّجل قصير القامة؛ ممتلئ كلِّ مكان في جسده؛ كأنّه ينتظر ولادة زوجته منتصف اللّيل، يسير ذهابا في الرّواق، وقبل أن يبلغ الزّاوية التي تتّكأ فيها المرأة الغجريّة، يستدير بسرعة في مكانه كما تفعل راقصات الفلامينجو. تتحرّك أماكن ممتلئة في جسمه فتبتسم تلك الغجريّة، بوجهها بامبيّ اللّون، وتلك النّجوم البرتقاليّة المتناثرة على واجهته. كانت تتصرف بعفويّة وعلى سجيّتها؛ غير أنّ الشّاب الذي كان في آخر الرّواق، يُدخّن سيجارة بالية مُمسكا إيّاها بشفتيه الزّرقاوين أو ربّما البنفسجيّتين، ظنّها تتغزّل به وتحاول إيقاعه في فخّ الحوريّة الغانية.

بعد هُنيهات سُمِعت بعض الخشخشة خلف الباب الكبير، فُتِح الباب؛ وخرج منه رجل بطقمٍ أزرق مع ربطة عنُق خضراء

اللّون، رافعا رأسه عاليا باتجاه السّقف؛ ليس تعاليا وإنّما محاولا إخفاء الصّلعة خلف رأسه، ومُبرزا بعضا من عضلات صدره الضّامرة. كلمتان لا غير "إلى الدّاخل" هذا كلّ ما قاله قبل أن يَسبق المُنتظِرين السِّتة إلى داخل القاعة.

في القاعة؛ كانت هنالك طاولة مستطيلة بسِتّة مقاعد، وبجانبها كانت هنالك آنسة تطْبِق يدها اليمنى على اليسرى؛ خافضة رأسها؛ مُتسمّرة قُرب عربة بعجلات؛ فوقها فناجين شاي فارغة؛ أكواب ماء؛ بعض المناديل الورقيّة وإبريق ليس عليه أيّ زخرفة. وبينما بدأت الضِّيافة كان الرّجل صاحب الطّقم الأزرق، يُحدّق في زجاج النّافذة المقابلة، محاولا إيجاد الوضعيّة المناسبة التي تُخفي صَلْعته. وُضعت فناجينَ الشّاي وبدأت الآنسة بصبّ القهوة، رغم أنّ الإبريق والفناجين كلّها مخصّصة للشّاي، وما إن امتلأ الفنجان السّادس حتّى غادرت الآنسة القاعة

مع صاحب الصّلعة. أُغلق الباب الكبير وساد الصّمت، حدّق المدعوُون السّتة ببعضهم ثمّ امتدت أيديهم نحو الفناجين.

المرأة العاشقة لِحذائها يبدو أنّها تتمرّن على هاته اللّحظة مذْ كانت في رحِم أمّها، عدّلت وضعيّة جلوسها؛ استقامت وحملت الفنجان بإبهامها وسبّابتها واستدرجته نحو فمها. الرّجل ضخم الجثّة لم يكن ذا أُصول مَلكيّة، طَوّق الفِنجان بقبضته وفي دفعة واحدة أفرغ ما فيه. الشّاب صاحب السّيجارة يبدو أنّه معتادٌ على الفناجين؛ إنّه يعرفها وتعرفه جيّدا، هذا واضح، خاصّة عندما أصدر تلك الأصوات، الشّبيهة بصوت محرّك سيّارة لم تتحرّك منذ عِقد.

تنحنَح الرّجل القصير الممتلئ وبدأ ارتشاف القهوة، وبينما كان يتجوّل بشفتيه على حوافّ الفنجان، كانت المرأة الغجريّة تَنفي كلّ التّوقعات حول تَحضُّرِها، عندما وَضعت الفنجان على بُعد

نصف شِبر من فمها، وبدأت تُمطِّط شفتيها باتجاهه، كزرافة تحاول بلوغ آخر ورقة أعلى الشّجرة.

أمّا آخر المَدعوّين -الشّخص الآخر- فقد كان لِسانه يَتلوّى داخل فمه، كطفلٍ صغير يُحاول تدفئة نفسه تحت بَطانيّةٍ في فجر يومٍ بارد.

انتهى المَدعوُون من ارتشاف؛ احتساء؛ تفريغ؛ شُرب القهوة. حشْحشَت الفتاة الغجريّة ونهضت من مقعدها، باتجاه الجرس المثبّت قُرب الباب، ضغطت عليه، وقبل أن تعود لمكانها دخل صاحب الطّقم الأزرق مع الآنسة، وتَلاهما رجل أشيب الشّعر على وجهه خُسوف كليّ، يرتدي حذاءً بكعب متوسّط يتدلّى فوقه سروال عريض. مظهره كان شبيها بمغنّيي التّسعينيّات، لكن يبدو أنّه المدير رغم كلّ الأنوف في هذا العالم. ابتسم ابتسامة دقيقة مُنحنية ثمّ باشر قائلا:

- أنتم النّخبة؛ لقد تمّ اختياركم كونَكم تمتلكون حِسّا رفيعا وذوقا راقيا، إذن ما رأيكم؟

تكلّم الرّجل ضخم الجثّة أوّلا، قائلا إنّ هاته القهوة تُذكّرُه بالقهوة التي كان يُعدّها صديقه المعطوب، عندما كان مُنخرطا في حرس الحدود؛ إنّها الأفضل. أكدّت السّيدة الغجريّة على هذا، قائلة إنّها لم تتذوّق مثل هذا الطّعم إلّا في مقاهي العاصمة الألمانيّة فرانكفورت. ورغم أنّ الشّاب المُدخّن لم يزرْ ألمانيا قبْلا، إلّا أنّه متابعٌ لكلّ المباريات، ويعلم أنّ هاته الغجريّة أشبه بسمكة تحاول التّحدّث عن الصّحراء. وبما أنّه صاحب خبرة في المقاهي، فقد أكدّ جودة الفنجان الذي دَسّه في جيبه، ليس سرقة طبعا وإنّما خوفا من أن يُكسرْ. أصدَر الشّخص الآخر صوتا جميلا بشفتيه، ثمّ أشار بأصابعه أنّ هاته قهوة أُمراء، غير أنّ المرأة عاشقة الأحذية أكدّت أنّها قهوة ملوكٍ لا أمراء. وبينما توجّهت الأنظار إلى الرّجل الممتلئ لمعرفة رأيه؛ كان يُراقب

الجدار المقابل بِوَلهٍ، كأنّه مُهندس أو رسّام جِداريّات، ودُون تحريك ناظريه قال إنّ هذا البُنّ؛ لا بدّ أنّه قد زُرِع بحُبٍّ وأملٍ كبيرين، حتّى يُنتج قهوة كهذه.

اِختفى الخسوف الذي على ملامح المدير، وحلّ مكانه انفجار أعظم، توجّه إلى الإبريق للتّأكّد من هاته المهزلة، فهوَ متأكّد أنّ ما قُدّم لهؤلاء المدعوّين ليس قهوة؛ بل حليبا، وقبل أن يرسل الشّتائم اقترب منه صاحب الصّلعة هامسا في أذنه:

- سيّدي، ثمن علبة واحدة من القهوة يساوي ثلاثة أضعاف ثمن علبة الحليب.

أشرقت الشّمس على وجه المدير، ضمّ يديه وقال:

- هذا البنّ قد أتينا به من حقل في قرية صغيرة جدّا في أعماق غابات البرازيل، لقد تمّ تحميصه بأحدث الوسائل ودون إضافات.

خِلال هذا كانت الآنسة التي قدّمت الضّيافة، تقفز نزولا على الدّرج؛ اثنتين؛ اثنتين، للوصول إلى المطبخ، وفي انتظارها على أحرّ من الجمر، الرّجل الذي أعدّ الحليب الذي ظنّه المدعوّون قهوة. غير أنّ ناره خمدت عندما طمأنته، أنّ المدير وصاحب الصّلعة لم ينتبها أنّ ما قُدّم لم يكن حليبا، بل كان لَبنا مصفّى؛ لقد كان متعبا هذا اليوم ولم يفرّق بينهما، غير أنّها مضَت على خير.

وفي هاته الأثناء خلف الباب الخارجيّ للمطبخ، كان المسؤول عن التّنظيف يسترق السّمع، وقلبه يرقص طربا، يبدو أنّ خدعته الصّغيرة قد نجحت، فما ظنّه الطّباخ والآنسة لبَنا لم يكن كذلك. مسؤول التّنظيف هذا كان بحاجة إلى بعض حليب جوز الهند، بسبب زوجته الحبلى التي تَوَحّمت عليه، غير أنّه يستحيل الحصول على شيء كهذا في مكان كهذا، لهذا قرّر تعويض حليب جوز الهند باللّبن المصفّى، مقنعا زوجته أنّ حليب جوز

الهند ليس حلوا كما هو سائد، بل يميل طعمه للحموضة. ومن أجل ألّا تُولد المشاكل ملأ قناني اللّبن بسائل خفيف أبيض اللّون، وجده في الحمّام المعطّل منذ أشهر. وبعد أن اطمأنّ عاد إلى مهمّته؛ عاد معلِّقا نفسه في الطّابق السّادس، ليُنظّف لوحة دِعايات الشّركة المكتوبة بأحرف بارزة وناتئة من النّحاس "الثّقة لإنتاج الأدوية واللّقاحات".

تمّت

نبذة عن المؤلّف

محمّد الصّدّيق منّيخ كاتب جزائري من مواليد 13 يناير 2002 بمدينة قسنطينة، الجزائر، حاصل على شهادة الماستر في القانون الدّولي والعلاقات الدّوليّة.

مهتمّ بالقصّة القصيرة والشّعر إضافة إلى الكتابة المسرحيّة. نشرت له عدّة قصص قصيرة ونصوص شعريّة ضمن مجلّات ومنصّات وطنيّة وعربيّة، وترجم بعضها إلى لغات أخرى.

حائز على:

- جائزة عمّار بلحسن للإبداع القصصي لسنة 2022 عن مجموعته "عبثيّات".

- جائزة تلك القصص لسنة 2023.

- جائزة ديوان العرب للشّعر العربي لسنة 2025.